من أقاصيص الحب فى عصر الرشيد

# بهيرة

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —

— ما أجمل هذا الصوت ! من أين مصدره ؟

— من صوب النهر يا مولاى

— إن حلاوته وإيقاعه لينبثان عن ظرف بارع وصبيّ نضر

— لعلها قينةٌ فى زورق من زوارق المخنثين[1] ترفُّ على لهوم الماجن بالغناء والحسن كالعادة

— مل بنا إلى الشاطئ فلعلنا نرى مصداق ما نسمع

وكان الرجل الذى سأل وأمر طويلاً بدين الجسم أشقر اللحية على وجهه جلالة السلطان وعزة الملك ؛ أما رفيقه الذى أجاب وأطاع فكان مساوياً له فى العمر ، ولكنه كان ربعة القوام رقيق البدن أزهر اللون ، تتوسم الظرف من ملامحه ، وتتبين الذكاء من وراء لفظه . وكانا يلبسان ملابس التجار ويمشيان مشية المستطلع بين القصور الناعمة القائمة على دجلة من كرخ بغداد فى أصيل يوم من أيام أبريل . وعلى ثلاث خطوات منهما كان يسير رجل وثيق التركيب عظيم البسطة يلحظ لحظات الصقر ويرعاهما بعين النمر . وكانت دار السلام يومئذ فى أيام العروس[2] من عهد الرشيد ، قد تجمعت فيها الدنيا بهجتها وزينتها وفتنتها وثروتها ، فهى أشمة من الجمال والسحر ، وظلال من الرخاء واليسر ، ونسمات من الروح والعطر ، وأخيلة من الحب والشعر ، ومُتَع من نعيم التمدن الإسلامى القائم على لذة الروح والجسم ، وسعادة الدين والدنيا ، وراحة النفس والناس

* * *

اتجه الرجلان وتابعهما الصامت نحو الصوت فجرهما إلى بستان مشرف على النهر قد جلست على عريش من عرائشه الكاسية بأشتات الرياحين والزهر جارية فى وفرة الجمال وزهرة العمر ترسل هذا اللحن الغزلى الشجى الضارع كأنما تهدهد به حباً لا يرجع ، وتناجى به حبيباً لا يسمع !

فدار بين أعظم الرجلين وبينها هذا الحوار الرقيق :

— لعلك تودين أن يكون لهذا الغناء السامع !

— لو كنت أوده لما عز علىّ أن أجده

— وهل خلق الله مثل هذا الصوت ليتبدد فى الهواء ويضيع فى هذه الخلوة ؟

— سل البلبل حين يبعث الشدو هل يبعثه إلى أذنك . وسل الشمس حين ترسل الضوء هل ترسله إلى عينك . وسل الزهرة حين تبث العطر هل تبثه لأنفك ؟

— تبارك الله ! براعة فى الغناء وبراعة فى

(١) كان يطلق هذا الاسم فى بغداد على أهل الترف واللهو والفتوة (٢) كان الناس يسمون عهد الرشيد لرخائه وجماله أيام العروس

الذكاء وبراعة فى الحسن ! ماذا تسمين ؟

— بهيرة

— ولمن تكونين ؟

— لسيدي علي بن وهب

قالت ذلك بهيرة ثم حيت الرجل وصاحبيه وانطلقت بين أشجار البستان كأنها عروس من عرائس الروج ازدهاها الربيع فطفرت من المرح راكضة راقصة

— لقد وقعت بقلبي هذه الجارية يا جعفر

— إذا شاء أمير المؤمنين كانت فى ملكه من الغد

— ٢ —

وفى غد ذلك اليوم انتقلت بهيرة بالشراء إلى قصر الرشيد بالرصافة ، وكان يموج بالحور والولدان موجَ الفردوس ، حتى بلغ ما فيه من السراري والقيان زهاء ألفي جارية من الروميات والكرجيات والجركسيات والعربيات والحبشيات ، يرفلن فى الأفواف الموشاة بالذهب ، والعصائب المرصعة بالدر ، والمناطق المنسوجة من المسجد ؛ ويخطرن بين دوائر الحرم مَوائس من الدلال ، نشاوى من الحسن ، ينفحن بالفتون والحب كما تنفح الزهور العاشقة بالعطور المغرية فى ميعة الربيع ...

أحلها مسرور الخصي مقصورتها الأنيقة بين مقاصير سحر وضياء وخنث[1] وأفاض عليها من الوشي والزينة والحلى ما جعلها قطعة من الفن الجمالي الخيالي لا تبلغها قريحة شاعر ولا عبقرية مصور . وانغمرت بهيرة فى فيض الجمال والنور والترف واللذة ! ولكن هذا القصر الذي لا ثاني له فى دنيا الناس لم يستطع بما فيه من النعيم الدافق والسرور المتصل واللهو المختلف والأشجار المحمولة من كل أرض ، والأطيار المجلوبة من كل سماء ، والأواوين المنجدة بالديباج والإبريسم ، والبرك المزدانة بالتماثيل والدُمَى ، والسلطان الذى خضع له الدنيا ، والجلال الذى اعتز به الدين ، لم يستطع بكل أولئك أن يمسح عن وجه بهيرة هذه الكآبة الغاشية ولا هذا السهوم الملح ؛ فقد كانت أشبه بالوردة المقطوفة على المائدة الغارقة فى السرور الطافحة باللذة : تذوى وتموت وكل ما حواليها يزدهى وينتعش . فهل كان قصر الخليفة أضيق من قصر التاجر ؟ أم كانت سيادة ابن وهب أندى على قلب بهيرة من سيادة الرشيد ؟ واقع الأمر أن هذه الحال لم تطرأ على بهيرة فى عيشها الجديد ، وإنما كانت تلازمها وهى فى ملك ابن وهب ، وقد تذرع هذا بالطب والحيلة واللهو إلى أن يرفه عن جاريته المحبوبة فما كانت تزداد على عنايته بها ورعايته لها إلا همًّا على هم ، حتى استراب فى حبها إياه فحاول أن يصل إلى سرها ويعرف متجه هواها فما استطاع . فلما ساومه النخاس عليها بالثمن الربيح نزل عنها غير آسٍ ولا آسف

كانت بهيرة قبل عامين قد وهبت قلبها الخالي المنتظر لفتى من سراة بغداد الظرفاء فشغله كله . تغلغل فيه تغلغل السر ، وشاع به شيوع السرور . ثم تقلبت عليهما الأيام والاحداث وهما ملء من رحيق الحب ، وادعان فى ظل الأمان ، حتى نزل بالفتى ما ينزل بالمترفين المتبطلين من كساد الحال وهجوم الفاقة . فباع كل ما يملك . ثم عاش على الأماني فترة

(١) هن بالحظايا الثلاث اللاتى استأثرن بهوى الرشيد حتى قال فيهن :

إن سحراً وضياء وخنث هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثي قلبي وترباها الثلث

من الدهر ؛ ورأى آخر الأمر أن من الاخلاص لحبيبته ألا يحمّلها وزر إسرافه وعواقب طيشه ، فباعها على الرغم من تشبثها به وإيثارها إياه على ابن وهب

وداب يزورها يوماً بعد يوم وهي فى قصر ابن وهب من وراء الحديقة ومن خلال السور وهى تنتظره فى العريش الذى رآها فيه الخليفة يوم تنكّره ، فيتساقيان كؤوس الهوى ، ويتناقلان حديث المنى ، ويتشاكيان حرقة الوجد ، وينظران نظرات الأسى المرير إلى دجلة والشباب الأحباب يشرقون على وجهه إشراق البسمة العذبة على ثغر السعيد ، فيذكران كيف كان هذا النهر الخالد مسرحاً لصباها اللاهى ، وشاهداً على حبهما الخالص ؛ وكيف نظر إليها الدهر الخؤون فتقوض الربع الآهل ، وتفرق الشمل الجميع ، وآل الأمر بهما إلى أن يكون بين قلبيهما عاذل لا يُتغفل ، وبين جسميهما حاجز لا يُقتحم

كانت بهيرة وهى فى قصر ابن وهب تستطيع أن ترى سليمان وأن تتحدث إليه وأن تترك الأقدار الرحيمة إسعاف حبيبها البائس بالثروة المرجوة فيستردها إلى ملكه ؛ ولكنها انتقلت الآن من عش الحمام إلى غيل الأسد ! فمن ذا الذى يستطيع الدنو من قصر الخلافة ؟ لقد ضرب الدهر بينها وبين حبيبها إلى الأبد ؛ فلا هو يستطيع إليها الدخول ولا هى تستطيع إليه الخروج ؛ فكأنه مات من دنياها وماتت من دنياه . وبيت الخلافة لأمثالها قصر فى الأول وقبر فى الآخر !

— ٣ —

على أن الهوى كالسكر لا يعرف المحال ولا يحس الخوف ولا يبصر العاقبة . فقد احتال سليمان حتى ظفر بثياب خادم من خدام جعفر بن يحيى . فكان يدخل قصر الرشيد فى هذا الزى فلا يرتاب فيه الحراس ولا ينكره الخدم . وعرف مقصورة بهيرة فكان يتسلل إليها فى الظلام أو فى الغفلة ، فيقضى معها ساعة من النهار أو هزيعاً من الليل يتضاحكان فيه غرامهما المسمور بالحديث المعسول والقبل الندية

وفى ذات ليلة طغى عليهما الحب وعصفت برأسيهما الصبابة فتولدت فيهما ناشئة من الأمل والعزم . قال سليمان وهو يثبت نظره المتوقد فى نظر بهيرة الساجى :

— لقد أعددت عدة الخلاص ومهدت لك سبيل الهرب

— وماذا أعددت يا سليمان ؟

— أعددت لك هذا الثوب الغلامى فالبسيه واخرجى تحت الليل حين تخشع الأصوات وتهجع العيون ولا يدخل ولا يخرج إلا رسل الأسرار بين قصور السادة والقادة . وسأكون فى انتظارك لدى مشرع القصب من دجلة

فقالت بهيرة ودمعها الساجم يتقاطر على خديها تقاطر الطل :

— أنسيت يا سليمان أنى ملك الخليفة فلا أخرج منه إلا بالبيع أو بالعتق !

— لم أنس يا بهيرة ، ولكن الخلاص بغير ذلك محال

— وكيف يصفو لنا العيش يا سليمان وهو شقاء متصل بمعصية الله وخيانة الخليفة ؟

— بربك يا بهيرة أخفتى هذا الصوت فى نفسك ، وفكرى قليلاً فى بؤسى وبؤسك . ليس لى غيرك وليس لك غيرى ؛ أما الخليفة فله ألفا جارية ، وله أضعافهن إذا شاء . والله يا بهيرة يغفر الذنوب جميعاً

— ألا تظن يا سليمان أن العذاب فى الحب عذب ، والموت فى سبيله شهادة ، وأن هذه الساعة

التي نلتقي فيها على غفلة من الرقيب بين الخوف والأمن ، وبين اليأس والرجاء ، أدنى إلى الحب الصحيح والسعادة الحق من العيش الغرير الناعم على مهاد الرذيلة ؟

— أطيعي الهوى يا بهيرة واعصي العقل . فان العشاق لا يعيشون بعقول الخلعين ولا يخضعون لقوانين المجتمع

وأسلس لسليمان الدمع والكلام فأوشك أن يحمل بهيرة على رأيه لولا أن قرع باب المقصورة قارع عنيف ، فاستطير قلب العاشقين من الرعب ، وأيقنا بالهلاك المحتم

وفتح الباب ودخل مسرور قهرمان القصر وسيد الموالى وحاجب الرشيد ، ومعه نفر من الحراس ، فأمر بالقبض على سليمان ، وكان قد سمع بآذان جواسيسه ما دار من الحديث بينه وبين بهيرة

— ٤ —

سيق العاشقان إلى مجلس الخليفة الخاص متهمين بانتهاك حرم الخلافة والمؤامرة على الفرار والخلوة الأثيمة . فسألهما عن جلية الخبر فأجاباه بصحته ، واستفهم الشهود عن تفصيل الحديث فأدلوا به على نصه . وكان الخليفة مفتوناً ببهيرة لما جرّب عليها من الوفاء والذكاء والصدق فعفا عنها ، ودفع بسليمان إلى مسرور ينفذ فيه حكمه

فتقبل العاشق المنكود الحكم عليه قبول من راض نفسه على التسليم بالقضاء المحتوم والأمر الواقع . وذهب به الموالى إلى لقاء الموت ، ولبثت بهيرة فى حضرة الخليفة شاخصة لا تطرف ، واجمة لا تنطق ، كأنما أخرجها الجمود عن الحياة ، وفصلها بها الذهول عن الوعى . ثم رأرأت بعينيها في سكون ، وحركت لسانها ببطء ، وألقت بنفسها على قدمى الخليفة وهى تقول : مولاى : إنى أعلم أن الجريمة إذا مست الشرف ضاق بها العفو وقصرت عنها الشفاعة ؛ ولكنى أعلم كذلك أن حلمك لا يستخفه غضب وعفوك لا يتعاظمه ذنب . فهب لى دم سليمان فقد جنى عليه حبي ، وسعى إلى عدمه وجودى . وهو يا مولاى برئ الساحة صادق النية سرى الخلق

فقال لها الخليفة : إن هذه الجريمة تُنسى بوجهها الوقاح صورة الرحمة . فاسأليني ما شئت إلا العفو ، فانى لا أمنح إلا ما أملك .

فقالت بهيرة : إذن تعدنى يا مولاى ألا يُقتل حتى أراه .

فقال لها الخليفة : لك هذا الوعد .

وأرسل وراء الجلاد يأمره أن يرد عليه سليمان قبل أن يمضى قضاءه فيه .

فلما خرج الرسول أدارت بهيرة بصرها فى السماء والفضاء والطبيعة ، ثم أرجعته وهو يفيض بالدمع والأسى ، ورددته فى نواحى البستان ، وفى جوانب المكان ، وفى مرايا الجدران ، وفى حلتها الذهبية ، وفى حليتها اللؤلؤية ، وفى وجه الخليفة ؛ ثم أدخلت إصبعيها فى محجريها فاقتلعت بهما عينيها

فصاح بها الخليفة وقد أفزعه ما رأى :

— ويحك ماذا صنعت بنفسك ؟

— فديت بعينىّ حبيبي يا مولاى

— وكيف ذلك يا حمقاء ؟

— ألست وعدتنى يا مولاى ألا يُقتل حتى أراه ؟ فالآن لا أراه ولا يُقتل !

* * *

كان أثر هذا الحادث بالغاً في نفس الخليفة ، فبسط على العاشقين جناح رحمته ، ومهد لهما الحياة السعيدة فى ظلال نعمته . وقنعت الفادية العمياء من دنياها بالعيش على نور الحب وفى كنف الحبيب !

الزيات